الكاتب: **د/ عبد الخالق كموني**
جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس بالمغرب

عنوان المقال: حيثيات فرض الحماية الفرنسية على المغرب والموقف الرسمي منها

البريد الالكتروني: kammouni1979@gmail.com

تاريخ الارسال: 2019/09/03 **تاريخ القبول**: 2019/12/19 **تاريخ النشر**: 2020/03/31

حيثيات فرض الحماية الفرنسية على المغرب والموقف الرسمي منها

Rationale for the imposition of French protectorate on Morocco and its official position

الملخص بالعربية: حاولنا في هذه المقالة الإجابة على سؤالين رئيسيين، تمثلا في: ما هي الحيثيات والملابسات التي أحاطت بتوقيع معاهدة الحماية الفرنسية على المغرب؟ وما هو الموقف الرسمي من الحماية الفرنسية على المغرب؟. وقد حاولنا الإجابة على هذين السؤالين اللذين مثلا إشكالية هذا الموضوع، معتمدين على مجموعة من المصادر والمراجع.

قسمنا الموضوع إلى محورين: الأول عالجنا فيه الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي عاشها المغرب قبل فرض الحماية، والتي كانت أوضاعا صعبة، عنوانها الأبرز الانهيار الاقتصادي والثورات الاجتماعية والضغوطات الفرنسية، كما بينا فيه موقف المخزن من هذه الأوضاع. أما المحور الثاني فعالجنا فيه ما يمكن أن نسميه نتائج المحور الأول والمتمثلة في توقيع معاهدة الحماية وردود فعل المغاربة وموقف السلطان.

كلمات مفتاحية: الحماية الفرنسية على المغرب، السلطان عبد الحفيظ.

Abstract : In this article, we attempted to answer two key questions: What are the reasons and circumstances surrounding the signing of the French protectorate treaty on Morocco? And what is the official position on the French protectorate against Morocco? We have tried to answer these two questions, which are the problematic of this subject, relying on a range of sources and references.

We divided the subject into two axes: The first dealt with the economic, political and social conditions experienced by Morocco before the imposition of

protectorate, that was a diffl difficult situations, the most prominent of which was the economic collapse, social revolutions and French pressures. The second axis dealt with what we might call the results of the first axis, namely the signing of the protectorate treaty, the reactions of the Moroccans and the position of the Sultan.
Key Words: French protectrate over Morocco, Sultan Abdul Hafeez

المقدمة

أصبح البحث في تاريخ المغرب المعاصر أحد أهم اهتمامات الباحثين في تاريخ المغرب، وذلك لأهمية المرحلة خصوصا وأن المغرب تعرض لضغوطات إمبريالية طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كما أنه تعرض للاستعمار في الفترة الممتدة بين 1912 و1956.

وتأتي أهمية البحث في مرحلة الحماية الفرنسية على المغرب، باعتبار هذه الفترة تعتبر بمثابة البنية التحتية لما نعيشه اليوم، كما تعتبر عملية البحث فيها من المهام الأساسية للباحثين لجمع المعطيات والوثائق...، قصد الحفاظ على الذاكرة الوطنية من النسيان.

وفي ذات السياق تأتي هذه المقالة الموسومة ب "حيثيات فرض الحماية الفرنسية على المغرب والموقف الرسمي منها"، والتي حاولنا من خلال استقراء مجموعة من الوثائق والمخطوطات والمذكرات والدراسات...، أن نبين الظروف العامة التي وقعت فيها معاهدة الحماية 30 مارس 1912، كما أننا أبرزنا موقف المخزن من الحماية، ومن التواجد الفرنسي بالبلاد قبيل الحماية.

وقصد الإحاطة بهذا الموضوع قسمنا مقالتنا الى محورين: المحور الأول عنوناه بالأوضاع العامة للمغرب عشية عقد اتفاقية الحماية وموقف السلطان منها. أما المحور الثاني فعنوناه بتوقيع معاهدة الحماية وموقف السلطان منها، وفي الأخير سجلنا مجموعة خلاصات على شكل خاتمة.

أولا- الأوضاع العامة بالمغرب عشية عقد اتفاقية الحماية وموقف المخزن منها

عرف المغرب منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أزمة بنيوية أدت إلى سقوطه تحت الاستعمار سنة 1912، وبالرغم من كثرة المحاولات التي باءت بالفشل، فان

الشعب التف حول عبد الحفيظ وبايعه سلطانا للبلاد. ويمكن وصف حالة البلاد بقول الحجوي: "... فثار بوحمارة سنة 1320 وتبعه ثوار آخرون واشتعل المغرب نارا واضطربت جهاته وانقطعت المادة عن الدولة العزيزية ... فاحتاج المغرب لعقد السلف من أوربا والسلف مبدأ التلف فأوجب الرهن والتداخل في أحوال المرهون ... ثم كملت المصيبة بالثورة الحفيظية وصارت تنشر في البلاد دعاية أن مولاي عبد الحفيظ العالم العامل هو الذي ينقد البلاد من سقوطها طبق عهوده ووعوده فالتف عليه الشعب ثقة بوعده ... غير أنه لما تم له الأمر ظهر من الجور والاختلال والخور ما هو أفج وأشنع فندم الشعب على تفريطه في أخيه ....

ولشدة حنق الشعب عليه وعلى دائرته أنهم صاروا يتمنون احتلال فرنسا الذي لأجل مواجهتها ثاروا على مولاي عبد العزيز وانتشرت في البلاد دعاية لفائدة الاحتلال ووجدت قلوبا قابلة لذلك حيث أدماها الظلم واختلال الأمن ".[1]

أصاب الحجوي عندما اكتشف بأن بداية السلف التلف، أي أن الدولة التي فقدت أموالها وقبلت بالسلف، فطبعا ستكون فاقدة لسيادتها ولو تدريجيا، وهذا ما وقع للمغرب، فأوضاعه الداخلية وفساد إدارته، جعلت منه لقمة صائغة للدول الامبريالية المتربصة بخيراته.

عجلت هذه الأوضاع بالانتفاضة، التي عمت البلاد كلها ضد عبد العزيز، وكان ذلك بعدما صادق على عقد الجزيرة الخضراء وفتح الباب أمام التدخل الأجنبي، وكان ذلك أيضا سببا في تنصيب المولى عبد الحفيظ سلطانا للبلاد، وظهر هذا الأخير كبطل للاستقلال الوطني وتم استلامه مقاليد الحكم بمظاهر واضحة من الحماس الشعبي.[2] إلا أن مولاي عبد الحفيظ ما إن استلم الحكم، حتى وجد نفسه في وضعية صعبة، تتمثل في استمرار الأزمة المالية، وكثرة الثورات والفتن، إضافة إلى التواجد الفرنسي الذي وصل إلى فاس من أجل فك الحصار على السلطان.

سارعت الدبلوماسية الفرنسية إلى إعطاء الضوء الأخضر للجيش الفرنسي للتدخل في فاس في إطار التعاون العسكري الفرنسي المغربي، مبررة ذلك بأن السلطان طلب من فرنسا بسط حمايتها على المغرب.[3]

وتنفيذا لشروط البيعة، اتخذ السلطان موقفا صريحا ورسميا مما روجته الدعاية الفرنسية حول طلب الحماية من فرنسا، وكذب ذلك بواسطة ممثله والناطق باسمه محمد المقري الذي كان في مهمة مخزنية بباريس، وتحدث إلى وكالة الأخبار الفرنسية (هافاس) يوم 29

مايو 1911 مكذبا بشكل قطعي كل ما نسب إلى السلطان عبد الحفيظ من أنه طلب من فرنسا أن تبسط حمايتها على المغرب.[4]

وفي هذا السياق يذكر المقري أن " جلالة السلطان في جميع الظروف السابقة سواء في فاس أو في باريس، وفي محادثاته الخاصة مع الجنرال موانى أعلن أنه إنما استدعى الجنود الفرنسية لتعيد الأمن إلى فاس، ولتساعد على حفظ الجاليات الأوروبية، وأعلن جلالته مغتبط بالمعونة الخالصة التي قدمتها له فرنسا بالمساعدة التي بذلتها في ظروف شاقة، لكن جلالته أعلن في نفس الوقت استمراره في عهدته السياسية على أساس عقد الجزيرة الخضراء الذي يقوم في أساسه على مبدأ ثلاثي: . أولا سيادة السلطان ونفوذه وثانيا على استقلال المغرب ووحدته، وثالثا على المساواة الاقتصادية بين جميع الأمم، ولقد كانت في كل مناسبة ستبقى مخلصة له على الدوام".[5]

بعدما تأكد السلطان استحالة جلاء القوات الفرنسية عن فاس، فتح المجال أمامها لمزيد من الضغط على المخزن وإثارة المزيد من الفتن، وتمكنت من عزل السلطان دبلوماسيا، لكنه ظل متشددا في أمر الاحتلال الأجنبي لبلاده.[6] وأبدى قلقه من أهداف التواجد العسكري الفرنسي بالمغرب وحث الحكومة الفرنسية على الالتزام بتعهداتها، لكن الجانب الفرنسي كان مصرا على جعل الجانب العسكري مكمل للدبلوماسي، فقد كان قواد البعثة يطالبون في تقاريرهم بضرورة تدخل عسكري لإرغام السلطان على التعاون مع فرنسا أي قبول هيمنتها والتخلي عن المطالبة بالجلاء.[7]

أمام هذا الوضع اقتنع السلطان بالرغبة الأكيدة لفرنسا في احتلال المغرب إذ أصبح مصير البلاد المحتوم، مع عدم قدرة المغرب على المواجهة. وبدأ يفكر منذئذ في التنازل عن العرش، فقدم في 17 أكتوبر 1911 مذكرة إلى الحكومة الفرنسية يستفسر عن مستقبله إذا ظل سلطانا ومدى سلطته، ومستقبل خلفه على العرش إن هو تنازل عنه، مطالبا بضمانات خاصة لهذه الأمور، ولحريته إذا استقال للبقاء في المغرب أو الإقامة خارجه وضمان أملاكه.[8] كانت النتيجة هي أن رفضت فرنسا مذكرة السلطان لأنها تعاكس خططها الاستيلائية على المغرب.[9]

عشية تقديم مذكرة المطالب المغربية، كانت المفاوضات جارية بين باريس وبرلين، وتم توقيع الاتفاق الفرنسي الألماني في 4 نونبر 1911 وبدأت فرنسا تطلب من السلطان المصادقة عليه، وأمام اعتقاده بأنه لا مفر من المصادقة على هذا الاتفاق، كتب في إحدى رسائله إلى

وزارة الخارجية الفرنسية ما نصه : " إن شرف الإمبراطورية (المغربية) واعتبارها، واحترام تقاليدها يلزم أن يبقى كما كان في الماضي كاملا غير منقوص، بحيث لا يمس بحال من الأحوال، والحكومة الفرنسية لا تجهل أن السلطة الحاكمة لم تزل موضوعة بين أيدي العائلة العلوية منذ أربعة قرون، فلا بد من أن تحفظ لها هذه الحرمة، وأستلفت نظر الحكومة الفرنسية إلى الحقيقة الواقعة، وهي أن المغرب منذ الفتح الإسلامي لم ينضم إلى أي دولة أجنبية كمستعمرة من المستعمرات، وإنه منذ ثلاثة عشر قرنا لم ينقطع عن التمتع باستقلاله التام، ولهذا السبب لا يمكن أن تعتبر الإمبراطورية الشريفة أرضا مستعمرة ".[10]

وفي رسالة أخرى بعث بها السلطان عبد الحفيظ يوم 9 نونبر 1911 إلى وزير الخارجية الفرنسي دوسليف كتب عبد الحفيظ: " نحن واثقون بأن هذا الاتفاق سينتج عنه كل ما نرجوه من الدفاع عن مصالح مملكتنا الشريفة، وعندما يصل ممثل حكومتكم لدى جلالتنا ليعرض علينا الإصلاحات التي هي ضرورية لضمان رفاهية بلادي، ونموها، وتقدمها في طريق الخير العام، سيجد عند جلالتنا مساعدة ومعونة طبقا لتصريحاتنا الصادرة عن إخلاص وحسن نية، وهكذا سنحقق رغبتنا في نفع حكومتنا الشريفة وتحسين حالتها".[11]

جاءت مذكرة فرنسا الجوابية التي حملها السفير رينو الذي قدم إلى فاس لعرض مشروع المعاهدة على السلطان وتتضمن الخطوط العريضة لفكرة الحماية، وتؤكد احترامها للإسلام والإبقاء على نظام الأوقاف والمحافظة على هيبة العرش وامتيازات السلطان، وأن المسائل العامة التي تهم سياسة الدولة ستكون موضع اقتراحات، يعرضها ممثل فرنسا على السلطان ويدرسها معه، على أن تسلم شؤون المغرب الخارجية إلى فرنسا لتدليل الصعوبات التي يتعرض لها السلطان آنذاك.[12] كان هذا المشروع مسبوقا بمشروع مغربي قدمه المقري في 17 أكتوبر 1911، وبلغ عدد فصوله 27، وهو المشروع الذي ضربته فرنسا عرض الحائط.[13] وبعد خمسة أشهر عارضته بمشروع من تسعة فصول شبيهة بفصول معاهدة باردو.

ومنذ أن تسلم السلطان المولى عبد الحفيظ هذه المذكرة، وأثناء المفاوضات مع الوفد الفرنسي في مارس 1912، دخل في صراع حاد مع المفاوض الفرنسي رينو، وقاومه مقاومة عنيفة، وتروي الوثائق الرسمية السرية الفرنسية حسب الوزاني أن مما صارح به السلطان مفاوضه، في غضب واستنكار، قوله: " إنني سلطان الاستقلال ولا يمكن أن أكون سلطان الحماية".[14]

فقد كان السلطان يتحفظ أحيانا، ويتحدى أحيانا، ويعبر في رغبته في التنازل على العرش أحيانا أخرى، مما كاد أن يؤدي إلى إفشال الخطة الفرنسية،[15] لكن المفاوضين الفرنسيين وعملائهم في حكومة المخزن كانوا يلاطفونه ويرغبونه في الاستعمار مراعاة لمصالح البلاد والرعية، وما هذا في الواقع إلا دعم للخطة الاستعمارية التي كانت تخشى أن يؤدي تنازل السلطان عن العرش في دلك الظرف إلى أزمة دولية جديدة أو قيام ثورة عامة في البلاد [16].

يقول عبد الحفيظ: " إني أفضل التخلي عن الملك على التسليم لكم، الأمر الذي يصيرني في حكم التاريخ مسؤولا عن إدخال فرنسا إلى بلادي".[17]

كان السفير رينو يعرف جيدا أن استقالة السلطان إحباط لمهمته الاستعمارية، ولذلك مارس كل الضغوط لبقائه في الحكم مع مواصلة المحادثات في موضوع الحماية،[18] وصرح في 29 مارس أن تعنت السلطان ومعارضته ستدفع فرنسا إلى استخدام قوتها العسكرية المحيطة بفاس لفرض الحماية بقوة المدافع، وهو ما جعل السلطان يستدعي في وقت متأخر من هذه الليلة ابن غريط والوزير محمد المقري وإبلاغهم بعزمه على توقيع العقد في اليوم الموالي.[19]

وفي حديث للقنصل العام الفرنسي كايار بفاس أن عبد الحفيظ عند تنازله عن عناده وتصلبه وتصميمه على التخلي عن العرش، أجابه: " لست أدري أن أكون سلطان الحماية، إذ في هذا مخالفة لماضي كله، ولحاجتي إلى الحرية والاستقلال، ولا أستطيع أن أنسى وكل شعبي يتذكر أني فرضت نفسي في مراكش كمدافع عن بلادي ضد كل تدخل أجنبي، فلست بقادر، من غير خيانة ضميري، على قبول والتماس نير قمت ضده في موقف استحققت من اجله العرش فلا أريد أن أخون الثقة التي وضعها شعبي في نفسي، ومن جهة أخرى... لا أستطيع الاقتناع بقبول رقابة تحد من إرادتي، وتخضع أعمالي لمصادقتها وإقرارها، كلا ليس هذا بممكن حقا، فلست بالرجل الذي يلزم بلعب دور سلطان الحماية، ومن العبث الإلحاح على هذا، فقراري غير قابل للتراجع عنه".[20]

وفي الليلة الأخيرة استمر يناقش المشروع الفرنسي من الساعة السادسة مساءا إلى منتصف الليل،[21] ولكن تحت الضغط والتهديد الدبلوماسي والعسكري تم توقيع عقد الحماية في 30 مارس 1912 في ظروف غامضة وفي جو يضرع بالإكراه والابتزاز، وقد أعرب عن ذلك روم لاندو في كتابة تاريخ المغرب في القرن العشرين بقوله : " إن السفير رينو قاد هذه المفوضات المضنية باللجوء إلى الوعد مرة أخرى، وبفضل أسلوبه هذا انتهت المفاوضات التي طال أمدها

بالنجاح وتوجت بتوقيع المعاهدة "،[22] وأمام هذا الضغط والإكراه وقع السلطان ساخطا غاضبا عازما على مفارقة العرش نهائيا احتجاجا على ظلم وخداع فرنسا.[23]

وقبيل التوقيع كان السلطان يصارع حاشيته من أجل عدم القبول بالحماية ويقول: "...آه ! يا ليتني لم أطلب منهم عونا! ويا ليتهم لم يكونوا ورائي في هذا الوقت العصيب الذي يتطلب المزيد من العمل، إني أريد الاستمرار في الكفاح، إني أريد أن أجعل المسلمين في مأمن من هذه الكارثة التي تهددهم من جراء هذه الوصاية الأجنبية وهذا النفوذ المسيحي دمره الله ومحقه".[24]

يذكر أن جل الحاضرين أطرقوا رؤوسهم أرضا، إلا الصدر الأعظم الحاج محمد المقري الذي عبر عن الانكسار بقوله: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، واستمر في إقناع السلطان وكل الحاضرين بأن لا مفر من قبول الحماية، مذكرا بالقوة العسكرية والصناعية لفرنسا، ونفوذهم القوي، وختم بقوله: " لله من قبل ومن بعد"، ولم يجبه أحد إلا السلطان الذي عبر عن رغبته في الالتحاق بالجبال لمكافحة الطغاة، فما كان على المقري إلا أن عبر له عن أن ذاته الشريفة هي الأمل الوحيد الذي بقي للمغاربة.[25]

وبتوقيع معاهدة الحماية انطلقت مسيرة أخرى من المواجهة والصراع بين السلطان وسلطات الحماية.

ثانيا – توقيع معاهدة الحماية وموقف السلطان منها

بعدما عبدت فرنسا طريقها للسيطرة على المغرب، لم يتبق لها إلا عقد معاهدة مع المخزن، وهو ما تأتى لها في 30 مارس 1912 بفاس. وتذكر جل مذكرات الوطنيين المغاربة أنه بعد توقيع معاهدة الحماية من طرف السلطان عبد الحفيظ، رفض كل تسليم واستلام، وكل تعاون مع سلطات الحماية، بالرغم من انصياعه للضغوط،[26] بل حذر الفرنسيين عندما صرح قائلا: " احذروا أيها السادة إني أمثل شعبا لم يسبق أن كان مستعمرة، ولم يسبق له أن كان شعبا خاضعا ولا مستعبدا".[27]

لقد تم الاكتفاء بالترجمة الفرنسية لنص المعاهدة التي لا تقبل التعديل.[28] بالرغم من أن السلطان قد اشترط أن يكون نص المعاهدة بالعربية وحدها، هذا النص الذي ظل سرا مكتوما إلى وقتنا الحاضر دون نشره.[29]

فعلا إن التساؤل لا زال مطروحا إلى حد الآن حول مصير النص العربي الموقع من طرف السلطان، والذي جعل هذا السؤال ملازم لكل باحث في تاريخ المغرب المعاصر هي الأحداث التابعة لتوقيع المعاهدة من طرف السلطان، كالتنحي عن العرش، ومساندته للاحتجاج ضد الحماية...

وتجدر الإشارة حسب الوزاني إلى أن أمهات الصحف الألمانية روجت في سنة 1937 خبرا، لقي صدى عند الصحف الأوربية عامة، مفاده أن السلطان عبد الحفيظ الذي كان في إقامته الجبرية بفرنسا بمدينة انكان ليبا القريبة من باريس، كان يعتزم تقديم طلب العودة إلى عرشه في 30 مارس 1937، وهو تاريخ انتهاء الحماية الفرنسية على المغرب.[30]

ومما لا جدال فيه أن السلطان عبد الحفيظ قبل اندلاع ثورة الجنود المغاربة كان غير راض ولا مرتاح للسياسة الفرنسية في المغرب، فتوقيعه على معاهدة الحماية تم تحت الإكراه والضغط الدبلوماسي والوعيد للفرنسيين.[31]

إن أولى الاعتراضات التي واجهت السلطان في تطبيق معاهدة الحماية هي الشكوى التي تقدم بها زهاء 20 جنديا، حيث دخلوا عليه يقولون: " الشكوى على الله وعليك أمولاي حفيظ، ...إن ضباطنا ضغطوا علينا غاية الضغط، فإن كنا معك في الخدمة فارفع ضررهم، وإن كنا معهم فنحن لا نقبلهم ولا نخدم مع النصارى".[32] فما كان إلا أن كانت تلك الشرارة الأولى بفاس لاندلاع الثورة (ثورة الجنود) ضد كل ما هو متعلق بفرنسا.

لقد حمل الحزب العسكري الفرنسي مسؤولية حادثة ثورة فاس للسلطان والصدر الأعظم ووزير الحرب، إذ زعم الفرنسيون أن ما حدث كان بإغراء من السلطان الذي ندم على إبرام معاهدة الحماية، ومنهم من يقول أنه سمع العلاف يغري العسكر بالقتل،[33] فحسب التقرير لجنرال موانبي فإن "السلطان كان وراء هذه الثورة وأنه هيأ الأسباب منذ وقت بعيد". لكن ما يفسر غضب المغاربة هو إحداث تنظيمات جديدة من طرف الفرنسيين، أجبرت الجندي المغربي على الانصياع لها، وتأثر الجنود بمشاعر الكراهية التي كان يكنها المغاربة للفرنسيين بعد توقيع معاهدة الحماية بالضغط على السلطان، مصرين على أنهم ليسوا جنود اليهود وأنهم جنود السلطان.[34]

لقد كان السلطان مساندا لهذه الثورة، وأبدى تعاطفه معها ومع الجنود المغاربة، وحمل مسؤولية ما وقع من أحداث للجنرال برولار Brulard ومساعديه العسكريين، وذلك عبر الشروع في إصلاح عسكري متسرع لم يؤخذ فيه رأيه ولا استشارته فيه، وعزله عن جيشه

بصفة نهائية،[35] لقد كان رأي الفرنسيين أن يخرج السلطان إلى الناس ويسكن "الفتنة" ولو أدى الأمر إلى قتله، فكان جوابه أنه ما احتمى بهم إلا من أجل الحماية لا من أجل الموت،[36] فبدلا من أن يتخذ السلطان أي إجراء رادع للثورة، أمر العسكر بالاختباء في جامع المولى عبد الله، هذا فضلا عن أن البعثة الفرنسية كانت غصة في حلقه بسبب تجاوزها المهام الموكولة إليها، كما أن الإصلاحات التي فرضتها على الجيش المغربي كانت تهدف من ورائها تأسيس جيش مغربي يقوده ضباط فرنسيين، وذلك من أجل استخدامه في احتلال المغرب دون أن تجازف فرنسا بأبنائها معتمدة في ذلك على احتلال المغرب بواسطة المغاربة.[37]

ظل السلطان نادما على ما حل بالبلاد من بلاء وأبدى مقاومة سلمية عنيفة ضد الوجود الفرنسي بالمغرب بعد توقيع معاهدة الحماية، وكان دائما يبرئ ذمته مما حل بالبلاد منتقدا بطانته بسبب ما آل إليه المغرب بسقوطه تحت الاستعمار، وفي خطاب وجهه إليهم قبل مغادرته فاس قائلا: "أما نحن فقد كانت نيتنا حسنة، وكانت جلالتنا تنوي إصلاح البلاد والرفع من معنوياتها والدفاع عن مصالحها بالتي هي أحسن، وأن هذه الحماية في نظرنا هي شبيهة بالاستقلال ولو طبقت شروطها وهي أخف الضررين، أخف من الاستعمار والاحتلال، إن فرنسا كانت تنوي الاحتلال، ولكن الله لم يقدر ذلك، فبدلا من الاحتلال قدر الله الحماية وهكذا شاءت قدرته، وأخبركم أيها الخونة فبمجرد وصولنا إلى الرباط نتنازل عن العرش لنبرهن للعالم أننا غير راضيين بأعمال فرنسا ".[38]

عمل ليوطي منذ تعيينه مقيما عاما بالمغرب، لمدة ثلاث أشهر يقاوم عداوة السلطان، ولم يستطع فك شفرات عداوة الموقع على معاهدة الحماية لما تم التوقيع عليها،[39] واستمر الصراع على أشده بين السلطان وليوطي أول مقيم عام كلف بالإشراف على تنفيذ شروط الحماية وترويض السلطان على الانقياد لها، إلا أن السلطان رفض رفضا قاطعا التعاون معه، فكانت كل المشاريع التي تقدم بها لا تلقى الرضا، ورفض كل عمل رسمي يضفي على النظام الجديد طابع الشرعية في أعين الشعب، وأصر على التنازل عن العرش وانتقل إلى الرباط تمهيدا لتنفيذ تنازله، ذلك مع العلم وأن السلطان قبل أن يوقع على معاهدة الحماية أصر على الاعتراف له بحق التنازل إن رغب في ذلك.[40]

وفي 7 يوليوز صرح السفير دوسان أولير، أن الأزمة بين السلطان وسلطات الحماية انفجرت، وأنه امتنع عن تنفيذ بنود المعاهدة، وبعد ذلك بأربعة أيام أعلن ليوطي لحكومته أنه

من المستحيل أن يضمن تعاونا من السلطان ومخزن لا ينفذان التزاماتهما، واستمرت هذه المعارضة إلى أن تنازل عن العرش في 12 غشت 1912.[41]

لقد أبدى السلطان معاكسته للإقامة العامة، بل كان يمتنع عن توقيع الظهائر التي كان يرسلها له موظفوه، والظاهر أنه كان لذلك ما يبرره، وكان يزكي موقفه بقوله: " ليس لدي أي سلطة، ولا أكاد أستطيع أن أعطي النصائح لقد غلوا يدي وقالوا لي احكم"،[42] ويتضح جليا أن عبد الحفيظ وجد نفسه في وضعية السلطان الشكلي الذي يجب عليه تنفيذ قرارات الحكومة الفرنسية، وذلك ما لم يستطع فعله باعتباره سلطان الجهاد لا سلطان الحماية، مما يفسر مساندته لكل عمل يهدف إلى محاربة العدو.

لقد كان مثلا في الجهاد، وكيف لا وهو الذي وقف صامدا أمام التغلغل الفرنسي بالمغرب، صحيح أنه لم يوفق بين التزاماته إزاء الذين بايعوه سلطانا للجهاد، وبين التزاماته الدولية نظرا للضيق الذي كان يعانيه المخزن مما جعله في عجز تام،[43] ولكن رغم ذلك كان ذا روح وطنية قوية وغيرة دينية، فحتى الأجانب وصفوه بالتعصب وكرهه للأجنبي.[44]

يتحدث السلطان وفي قلبه غصة بعد مغادرته لثغر طنجة في بداية الحرب العالمية الأولى ويحكي المعاملة التي عومل بها قائلا: " والإهانات التي تجرعت غصصها ولم أزل مدة انتقالي من ذلك الثغر أتجرع ألم الهجرة لأن شأنها عظيم، وأنتظر انفراج الأزمة بانتهاء الحرب"،[45] ورغم تنازله عن العرش لم يسلم من المضايقات الفرنسية والإذلال هو وأسرته وأن مطالبه بحريته وحرية عائلته لا تلقى إلا أجوبة شفوية لا كتابة، ولقد اشترطت عليه السلطات الفرنسية الإقامة بباريس، وكان جوابه بأنه لم يتنازل عن الملك إلا ليتمتع بحريته، وكان احتجاجه شديد اللهجة حيث أنه جاء في إحدى رسائله ما يلي: " وأشهدكم أنني ما أتيت بجريمة شرعية تستوجب استحلال مالي ومفارقة أهلي وتركي عرضة للضياع وإنني أحفظ حق القيام بالظلم فيما أخذ مني من قبل ومن بعد وفي أهلي ، وأمر من كل دعوى تجعل وسيلة منعي مما ذكر، وسأكتب لسائر المسلمين بالانحناء بشرح القضية لأن الجامعة الإسلامية والإخوة الدينية تلزمنا بالتصريح دون التلويح، وتسمح لي بإظهار ما كان السبب في مفارقة الأهل بغير ذنب مبيح".[46]

وبعد تنازله على العرش توجه إلى فرنسا ومنها إلى المشرق للقيام بمناسك الحج، وخلال هذه الرحلة تمكن من نسج علاقات مع العلماء وزعماء حركة الجامعة الإسلامية في مصر وبلاد الحرمين الشرفيين، وأبدى استعداده للانخراط في حركة النضال ضد الهيمنة

الفرنسية خاصة بشمال إفريقيا،[47] وذلك يوضح أن سبب التنازل عن الملك هو التحري من كل القيود التي تمنعه من النضال إلى جانب شرفاء البلاد ضد تطبيق الحماية بشمال إفريقيا، لكن فرنسا وعت الخطر الآتي من عبد الحفيظ مما عجل بمحاولة عزله عن المغاربة.

وبالرغم من ذلك فإنه استغل تواجده بإسبانيا وشكل شبكة تحالفات واسعة هدفها عرقلة الاحتلال الأجنبي للمغرب، ضمت هذه الشبكة ألمانيا والجامعة الإسلامية والأتراك،[48] وكانت هذه التحالفات خاصة مع الألمان تنزل على ليوطي كالصاعقة بسبب ما أثرته من متاعب للحماية.[49]

تمسك عبد الحفيظ بنهجه الايجابي باعتباره سلطان العمل، وعزم على تنظيم المقاومة المسلحة،[50] وقام بالاتصال بزعماء الجهاد في الجبال وإمدادهم بالمال، وحثهم على الصمود في وجه المحتلين الغزاة اعتمادا على شبكة التحالفات التي تمكن من ربطها مع مجموعة من الأطراف المناوئة لفرنسا خاصة ألمانيا، فحسب تقرير وجهته الاستخبارات الفرنسية إلى سلطات الحماية بالرباط وإلى القنصل الفرنسي بطنجة بتاريخ 8 أكتوبر 1915 كان من ضمن ما جاء فيه : " لأجل إحداث ثورة في المغرب، اختار الألمان كقاعدة للعمليات بلدا محايدا ولكنه مناسب لأعمالهم هو اسبانيا، التي أرسلوا إليها ضباطا ألمان وأتراك كلفوا بهذه المهمة، وقد وصلت طائفة منهم إلى المغرب عبر الريف، وبقيت طائفة أخرى على علاقة دائمة بمولاي عبد الحفيظ ببرشلونة، وتبعا للاستخبارات الألمانية فان المغرب سيفرغ من القوات الفرنسية ولن يبقى به إلا حوالي أربعين ألف رجل تحت قيادة الجنرال ليوطي، إن البلاد معادية للفرنسيين بصفة عامة، والألمان يعدون المغاربة بإعادة عاهلهم السابق حفيظ إليهم".[51]

لقد كان عبد الحفيظ مهتما بما يجري في المغرب خاصة فيما يتعلق بحركة الجهاد والمقاومة، إذا عمل على الاتصال بزعماء المقاومة المسلحة أحمد الهيبة وموحى وحمو الزياني، فقد عثرت السلطات الفرنسية عبر مخابراتها على مجموعة من المراسلات بخنيفرة بين زوجة السلطان وأبيها موحى وحمو الزياني، والتي كانت تصل عبر الرقاص الحنصالي، الذي كان مكلفا بالبريد بين موحى وحمو الزياني وزعماء المقاومة في الشمال.[52]

كما أن الدكتور علال الخديمي أشار إلى أن عبد الحفيظ كان دائما على اتصال وتنسيق بثائر أخر وهو محمد المأمون الذي قاد حرب العصابات بدعم منه ومن الألمان، كبدت جيش الاحتلال خسائر فادحة، كما أنه اهتم بالمجاهدين المغاربة عامة، ولم يتأخر في دعمه

لثائر آخر ضد الاحتلال الفرنسي، ظهر بالقبائل الجبلية وهو عبد الملك الجزائري الذي كان يتلقى الدعم من الألمان والأتراك بالمال والسلاح والرجال عن طريق عبد الحفيظ وأتباعه بالريف.[53]

وإذا كان المولى حفيظ قد أزعج الفرنسيين كثيرا وهو سلطان المغاربة فإنه أقلق راحتهم وهو خارج سدة الحكم، بل ظل مزعجا حتى بعد وفاته، مما يفسر أن حقيقة الحماية أرادت فرنسا أن تدفنها مع جثمانه وهو ما تم لها إلى الآن، إذ حرصت يوم وفاته على منع أبنائه من السفر إلى مقر وفاة والدهم، وعهدت الحكومة الفرنسية إلى قدور بن غبريط مترجم المعاهدة التوجه إلى منزل الفقيد بأنكان والاستيلاء على كل مخلفاته من وثائق ومستندات، وكل الكتب والمخطوطات حتى لا يتسرب شيء منها للعموم.[54]

لا شك أن التعامل الفرنسي مع إرث مولاي حفيظ كان له ما يبرره، وغالبا أن فرنسا استطاعت إلى حدود الآن طمس جزء مهم من تاريخنا حتى لا يتسنى للباحثين المغاربة محاسبة تلك الحقبة المظلمة في سجل جهابذة الاستعمار، والمشرقة في سجل معارضي تلك السياسات.

خاتمة

لقد حاولنا من خلال هذه المقالة الإجابة على مجموعة من الأسئلة، والمتمثلة في الأسباب التي أدت إلى انهيار الدولة المغربية خلال مرحلة التنافس الامبريالي حول المستعمرات، وفرض الحماية الفرنسية على المغرب. كما أننا بينا موقف المخزن من الأوضاع العامة التي عاشها المغرب قبيل فرض الحماية وبعد عقدها، بل وضحنا موقف السلطان من الحماية الفرنسية على المغرب.

وإذا كنا قد اعتمدنا على الكتابات الوطنية لتوضيح موقف السلطان، فذلك راجع إلى أن الكتابات الأجنبية قد تعاملت بنوع من البرغماتية في توضيح موقف السلطان. نذكر على سبيل المثال ما أشار إليه فريدريك وايسجربر في كتابه على عتبة المغرب الحديث بأن السلطان قبل مجيء السيد رينو كانت "... تمتلكه سورة هياج عارمة، وبلغ منه الأمر إلى إعلان نيته في التنازل عن العرش"[55].

لقد شكك هذا الكاتب في هذا الموقف السلطاني طارحا مجموعة أسئلة، هل السلطان كان يتعمد ذلك لإنقاذ كرامته؟، أم هي مناورة للحصول على مزيد من الامتيازات المادية من فرنسا؟، أم حريصا على عدم تسليم جزء من أرض الإسلام إلى الكفار؟.[56]

يذهب نفس الكاتب إلى أن السلطان بعد توقيع معاهدة الحماية كان مسرورا، ومتعاونا مع فرنسا أشد التعاون إلى درجة الإشارة عليها في التعامل بحزم مع الوضع، وهو ما ذكره على لسان السلطان عندما سأله عن رأيه في التنظيم المقبل للحكومة " هناك طريقتان لتصور حل لهذه المشكلة: إما إدارة مباشرة بأعوان فرنسسين، أو تعاون محكم بين موظفي المخزن وأجهزة تنفيذية تكون على اتصال مباشر بالسكان والأعوان الفرنسيين المكلفين بالإدارة المباشرة والمراقبة...وعلى كل حال فأنا موقن من النوايا الحسنة لدى فرنسا..."[57].

وبدورنا فإننا إذ نقدم آراء متناقضة عن موقف لسلطان، فإننا نجزم أن الحماية فرضت على المغرب، لأن في هذه الحالة، فإن الموقف الرسمي لا يمثل المغاربة وحده، بل هناك مواقف متعددة أهمها موقف الشعب الذي رف

الهوامش:

[1]- الحجوي (محمد بن الحسن)، **حالة المغرب والحماية**، مخطوط المكتبة الوطنية، ح 254، الرباط، ص ص.8-9.

[2]- عياش (ألبير)، **المغرب والاستعمار، حصيلة السيطرة الاستعمارية**، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، مراجعة وتقديم إدريس بنسعيد وعبد الأحد السبتي، دار الخطابي للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، المغرب، 1985، ص.89.

[3]- الشاوش (محمد العربي)، *"أسرار عن موقف المولى عبد الحفيظ من معاهدة فاس"* ، **مجلة دعوة الحق**، عدد 246، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الرباط ، 1995، ص.171.

[4]- الوزاني (محمد حسن)، **مذكرات حياة وجهاد، التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية، الجزء 5**، مؤسسة جواد للطباعة والتصوير، الرباط، 1982، ص.87.

[5]- الناصري (محمد المكي)، *" معاهدة الحماية كما يرويها الأجانب"* ، **مجلة السلام**، الجزء الرابع، السنة الأولى، 1933، ص.2. ينظر كذلك: الوزاني (محمد حسن)، **مذكرات حياة وجهاد، الجزء 5**، ص.87 وما بعدها.

[6]- كانت مهمة المقري في باريس العمل على جلاء القوات الفرنسية مقابل المساعدة، لكن الجلاء لم يتحقق عن وجدة والدار البيضاء طبقا لمعاهدة الجلاء المبرمة بين المغرب وفرنسا في 23 فبراير 1910، ومعاهدة الجلاء بين

المغرب واسبانيا في 17 فبراير 1910. ينظر: الوزاني (محمد حسن)، **مذكرات حياة وجهاد... الجزء 5**، م س، ص.88. - الخديمي (علال)، *"الحملة الفرنسية على فاس 1911 المقاومة والانعكاسات الدولية"* ، **ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية الوسطى الشمالية ما بين 1911-1956**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط،1997، ص.73.

[7]- الخديمي (علال)، *" الحملة الفرنسية على فاس 1911 المقاومة والانعكاسات الدولية "* ، م س، صص.74-75.

[8]- حجي (محمد)، *"وثيقتان جديدتان حول ملابسات إبرام معاهدة الحماية ومعاناة السلطان عبد الحفيظ "* ، **كتاب التاريخ والفقه**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، مطبعة الجناح الجديدة، الدار لبيضاء، الطبعة الأولى، 2002، ص.60.

- الوزاني (محمد حسن)، **مذكرات حياة وجهاد**... الجزء 5، م س، ص.88.9

[10]- الناصري (محمد المكي)، *" معاهدة الحماية...."* ، م س، ص.60. - ينظر كذلك: حياة وجهاد، الجزء 5 ص.89.

[11]- الوزاني (ممد حسن)، **مذكرات حياة وجهاد**... الجزء 5، م س، صص.89-90.

[12] - حجي (محمد)، *"وثيقتان جديدتان حول ملابسات ابرام معاهدة الحماية...."* ، م .س، ص .60.

[13]- للاطلاع على المشروع ينظر **كناش الخزانة الحسنية رقم 827**.

[14]- الوزاني (محمد حسن)، **مذكرات حياة وجهاد، التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية،الجزء 1**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ص.154.

[15]- ابن الحسن (محمد)، *"السلطان المولى عبد الحفيظ وانتفاضة فاس من خلال وثيقة أجنبية أبريل – يونيو 1912"* ، **ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية الوسطى الشمالية ما بين 1911-1956**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المحاربين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، 1997، ص.67.

[16]- حجي (محمد)، *"وثيقتان جديدتان حول ملابسات إبرام معاهدة الحماية ...."* ، م س، ص.60.

[17]- الوزاني (محمد حسن)، **مذكرات حياة وجهاد...، الجزء 1**، م س، ص.154.

[18]- الشاوش (محمد العربي)، *"أسرار من موظف المولى عبد الحفيظ من معاهدة فاس ...."* ، م س، ص.171.

[19]- أسارة (حسن)، **أحداث فاس 1911-1912** ،أطروحة لنيل الدكتورة في التاريخ المعاصر، جامعة سيدي محمد بن عبد الله ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، فاس، 2003، ص.433.

[20]- الوزاني (محمد حسن)، **مذكرات حياة وجهاد...، الجزء 1**، م س، ص.155.

[21]- الشاوش (محمد العربي)، *" أسرار من موقف المولى عبد الحفيظ من معاهدة فاس ...."* ، م س، ص.171.

[22]- روم (لاندو)، **تاريخ المغرب في القرن العشرين 1900-1955**، ترجمة نقولا زيادة، نشر وتوزيع دار الكتاب، الدار البيضاء، 1963، ص.102.

[23]- ابن الحسن (محمد)، *" السلطان المولى عيد الحفيظ من معاهدة فاس ...."* ، م س، ص.67.

[24]- **الحماية الفرنسية، بدؤها – نهايتها، حسب إفادات معاصرة**، تعريب عبد الهادي التازي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط 1، 1980، ص.9.

[25]- نفس المرجع السابق، ص.10.

[26]- الوزاني(محمد حسن)، **مذكرات...، ج 1**، م س، ص.155.

[27]- فارس (محمد خير)، **تنظيم الحماية الفرنسية بالمغرب** ، د. ط، دمشق، 1972، ص.87.

[28]- الخديمي (علال)، *" المولى عبد الحفيظ ومقاومة الاحتلال الفرنسي خلال الحرب العالمية الاولى 1912-1918"* ، **ندوة السلطة والمجتمع في عهد السلطان مولاي يوسف**، جامعة مولاي علي الشريف، مركز الدراسات والبحوث العلوية ، الريصاني،2005، ص.97.

[29]- الوزاني(محمد حسن)، **مذكرات...، ج 1**، م س، ص.156.

[30]- الوزاني (محمد حسن)، **مذكرات حياة وجهاد...، الجزء 1**، م س، ص.157.

[31]- نفس المرجع السابق، صص.40-41.

[32]- حجي (محمد)، *" وثيقتان جديدتان حول ملابسات ابرام معاهدة الحماية ....."* ، م س، ص.72.

[33]- حجي (محمد)، *" وثيقتان جديدتان حول ملابسات ابرام معاهدة الحماية ....."* ، م س، ص .58.

[34]- أسارة (حسن)، **أحداث فاس...**، م س، ص.502.

[35]- نفس المرجع السابق، ص.503.

[36]- حجي (محمد)، *" وثيقتان جديدتان حول ملابسات ابرام معاهدة الحماية ....."* ، م س، ص.58.

[37]- ابن الحسن (محمد)، *" السلطان عبد الحفيظ وانتفاضة فاس...."* ، م س، ص.64.

[38]- أسارة (حسن)، **أحداث فاس ....**، م س، ص.506.

[39]- الناصري (محمد المكي)، **موقف الأمة المغربية من الحماية الفرنسية، كيف عرفت فرنسا جميع التعهدات الدولية الخاصة بالمغرب، فصول مغربية وأجنبية عن صك الحماية الفرنسية**، حركة الوحدة المغربية، تطوان، 1946، ص.65.

[40]- الخديمي (علال)، *" المولى عبد الحفيظ ومقاومة الاحتلال الفرنسي ...."* ، م س، ص.98.

[41]- الوزاني (محمد حسن)، **مذكرات...، ج 1**، م س، ص.155.

[42]- فارس (محمد خير)، **تنظيم الحماية الفرنسية بالمغرب**، م س، ص.138.

[43]- ابن الحسن (محمد)، *" السلطان عبد الحفيظ وانتفاضة فاس ...."* م س، ص.66.

[44]- حركات (إبراهيم)، **المغرب عبر التاريخ، الجزء الثالث**، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1993، ص.325.

[45]- حجي (محمد)، *"وثيقتان جديدتان حول ملابسات ابرام معاهدة الحماية ....."* ، م س، ص.56.

[46]- نفس المرجع والصفحة.

[47]- الخديمي (علال)، *" المولى عبد الحفيظ ومقاومة الاحتلال الفرنسي ...."* ، م س، ص.98.

[48]- المرجع نفسه، ص.101.

[49]- ابن الحسن (محمد)، *" السلطان عبد الحفيظ وانتفاضة فاس ...."* ، م س، ص.69.

[50]- اسارة (حسن)، **أحداث فاس .....**،م س، ص .506.

[51]- الخديمي (علال)، *" المولى عبد الحفيظ ومقاومة الاحتلال الفرنسي ...."* ، م س، ص.102.

[52]- ابن الحسن (محمد)، *" السلطان عبد الحفيظ وانتفاضة فاس ...."* ، م س، ص.69.

[53]- الخديمي (علال)، *" المولى عبد الحفيظ ومقاومة الاحتلال الفرنسي ...."* ، م س، ص .103.

[54]- الوزاني (محمد حسن)، **مذكرات...، الجزء 1**، ص.157.

[55]- وايسجربر (فريدريك)، **على عتبة المغرب الحديث**، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات دار الأمان، مطبعة الأمنية، ط 2، الرباط، 2011، ص.237.

56 - نفسه.

[57] - نفسه، صص.240-241.